سلسلة الصحابة الأخيار

عبدالله بن عبّاس





غُلامٌ صَغيرٌ أبصَرَ النَّبيَّ ﷺ يَركَبُ بَغْلَـةً أَهداهـا إِلَيـهِ كِسرى، فَوَقَفَ يَنظُـرُ وتَـوقُ نَفسهِ لَو يَسْمَـحُ لَهُ النَّبيِّ الأكْرَمِ ﷺ بِـأن يَمتَطيها وَلَوْ لِبُرهةٍ.

لَم تَطُلْ وِقفَةُ الغُـلامِ، إذ سُرعـانَ ما تَحقَّقَـتِ الأمنِيَةُ، وأردَفَـهُ النَّبيُّ ﷺ خَلْفَهُ، ثُمَّ مَضى بِهِ يَسيرانِ في رِحلَةٍ لا تُنسى.

فَجتأَةً التَفَتَ النَّبيُّ ﷺ إلى الغُـلامِ وَقالَ لَهُ:" ياغُلامُ!". فقـالَ الفتى:" لَبَّيكَ يارَسولَ اللّهِ".

قالَ النَّبيُّ ﷺ:" إحْفَظِ اللّهَ يَحفَظْكَ. إحفَظِ اللّهَ تَجِـدْهُ أمـامَكَ. تَعَرَّفْ إلى اللّهِ في الرَّخاءِ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ. وَإذا سَأَلْتَ فاسـأَلِ اللّهَ. وَإذا استَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِاللّهِ. قَدْ مضى القَلَمُ بِما هُوَ كائِنٌ، فَلَوْ جَهِدَ النّاسُ أن يَنفَعوكَ بِما لَم يَقضِـهِ اللّهُ لَكَ لَـم يَقْـدِروا عَلَيهِ. فَإنِ استَطَعتَ أن تَعمَلَ بالصَّبرِ مَعَ اليَقينِ فافعَلْ، فَإن لَم تَستَطِـعْ فاصبِرْ، فإنَّ في الصَّبرِ على ماتَكْرَهُهُ خَيراً كثيراً، واعلَـم أنَّ مَـعَ الصَّبرِ النَّصْرُ، وأنَّ مَعَ الكَربِ الفَرَجُ، واعلَـم أنَّ مَعَ العُسرِ اليُسرَ".



فَمَنْ هُوَ هذا الغُلامُ الّذي نـالَ من كُنـوزِ النُّبُوَّةِ وَعُلـومِها شَـرَفاً لايُضاهى، وَكَيفَ يُمكِنُ لِمَـنْ تَعَلَّـمَ على يَدِ خَيـرِ أَهـلِ الأَرضِ أَجْمَعينَ أن يكونَ بَعدَ أنْ نَهَلَ من ذاكَ اليَنبوعِ المُقَدَّسِ؟

كانَ ذلكَ الفتى هُوَ عَبدَ اللّهِ بنَ العَبّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، ابنَ عمِّ النَّبيِّ الأكرَم صلى الله عليه وآله وسلم وابنَ عمِّ الإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام.

قَبلَ هِجرَةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ بِثلاثِ سِنينَ وُلِدَ عَبدُ اللّهِ بنُ العَبّاسِ، فكـانَ شـاهِداً منذُ الطُّفولَـةِ على كُـلِّ فَصلٍ من فُصولِ الرِّسالَةِ، حتّى انغَرَسَ الدّينُ في قَلْبِهِ وَروحِهِ وَعَقلِهِ. كَيفَ لا وَقَدْ تَيَسَّرَ لَهُ أعظَمُ مُعَلِّمٍ في الكَونِ كُلِّهِ!

لَقَدْ كانَ النَّبيُّ الأكرَمُ صلى الله عليه وآله وسلم يَجْهَدُ في تَعليـمِ البَشَـرِ جَميعـاً دونَ أنْ يُمَيِّزَ بَينَهُم، ولكنَّهُ كـانَ يَعلَـمُ بِأنَّ لآلِ بَيتِـهِ دوراً خاصّـاً في تَبليغِ الرِّسالَةِ وَتَعليـمِ النّـاسِ، لِـذا كـانَ يَجتَمِـعُ بِهِـم باستِمرارٍ لِيُعَلِّمَهُم، وَيَزرَعَ في نُفوسِهِمُ الكَريمَةَ مَزيداً منَ العُلومِ والوَصايا. في هذا المُحيطِ المُقَدَّسِ نَشَأَ عَبدُ اللّهِ وتَرَعْرَعَ.

فَمَنْ هُوَ هذا الغُلامُ الّذي نـالَ من كُنوزِ النُّبوَّةِ وَعُلومِها شَرَفاً لايُضاهى، وَكَيفَ يُمكِنُ لِمَنْ تَعَلَّمَ على يَدِ خَيرِ أَهلِ الأرضِ أجْمَعينَ أن يكونَ بَعدَ أنْ نَهَلَ من ذاكَ اليَنبوعِ المُقَدَّسِ؟

كانَ ذلكَ الفتى هُوَ عَبدَ اللّهِ بنَ العَبّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، ابنَ عمِّ النَّبيِّ الأكْرَمِ ﷺ وابنَ عمِّ الإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام.

قَبلَ هِجرَةِ النَّبيِّ ﷺ إلى المَدينَةِ المُنوَّرَةِ بِثلاثِ سِنينَ وُلِدَ عَبدُ اللّهِ بنُ العَبّاسِ، فكانَ شاهِداً منذُ الطُّفولَةِ على كُلِّ فَصلٍ من فُصولِ الرِّسالَةِ، حتّى انغَرَسَ الدّينُ في قَلْبِهِ وَروحِهِ وَعَقلِهِ. كَيفَ لا وَقَدْ تَيَسَّرَ لَهُ أعظَمُ مُعَلِّمٍ في الكَونِ كُلِّهِ!

لَقَدْ كانَ النَّبيُّ الأكرَمُ ﷺ يَجْهَدُ في تَعليمِ البَشَرِ جَميعاً دونَ أنْ يُمَيِّزَ بَينَهُم، ولكنَّهُ كانَ يَعلَمُ بِأنَّ لآلِ بَيتِهِ دوراً خاصّاً في تَبليغِ الرِّسالَةِ وَتَعليمِ النّاسِ، لِذا كانَ يَجتَمِعُ بِهِم باستِمرارٍ لِيُعَلِّمَهُم، وَيَزرَعَ في نُفوسِهِمُ الكَريمَةَ مَزيداً منَ العُلومِ والوَصايا.

في هذا المُحيطِ المُقَدَّسِ نَشَأَ عَبدُ اللّهِ وتَرَعْرَعَ.

كانَ لِعَبدِ اللّهِ مكانَـةٌ خَصَّـهُ بِها النَّبيُّ ﷺ مُنذُ طُفـولَتِهِ، بَعـدَ أن لَمَسَ مِنهُ ما يَدُلُّ على فِطنَةٍ حَباهُ بِها اللّهُ سُبحـانَهُ، إضافـةً إلى ذكاءٍ وَقُدرَةٍ على الحِفظِ والاستيعابِ، وَرَغْبَةٍ عارِمَةٍ في تَحصـيلِ العِلمِ، فَدعا لَهُ ﷺ قائلاً:" اللّهُمَّ أعطِ ابنَ عبّاسٍ الحِكْمَةَ، وَعَلِّمْهُ التَّأوَيلَ".

كما خَصَّهُ بِأَدعِيَةٍ أُخرى، منها قَولُهُ ﷺ:" اللّهُمَّ بارِكْ فيهِ، وانشُرْ مِنهُ، واجْعَلْهُ مِنْ عِبادِكَ الصّالِحينَ.".

وَلَمْ يَكُنِ ابنَ عبّاسٍ يكتَفي، بَلْ كانَ يبحَثُ وَيسأَلُ كُلَّ من يَعلَمُ شَيئاً كانَ قد فاتَهُ.

وَقَدْ تَمَيَّزَتْ عِبادَتُهُ بالـوَرَعِ وَالزُهـدِ، وَكانَ يصـومُ كُلَّ يوم من أيّام الإثنَينِ وَالخَميسِ، كما كَانَ يُكثِرُ منْ تَرتيلِ القُرآنِ في اللَّيلِ، باكِياً مُنتَحِباً.

وَبَعدَ وَفاةِ النَّبيِّ ﷺ غـدا ابنُ عبّاسٍ من أوائـلِ المُنتَبِهينَ إلى ضَرورَةِ جَمعِ العِلمِ النَّبَويِّ وَتدوينِهِ، فَكـانَ يَلجَـأُ إلى أصحـابِ النَّبيِّ ﷺ وَالمُقَرَّبينَ منهُ، فَيَستَمِعُ إلى أحاديثِهِم الَّتي حَفِظوها عَنْهُ، وَمَعَهُ واحِدٌ منَ الكُتّابِ كَيْ يُدَوِّنَ لَهُ ما يَسمَعُ.



فباتَ مَشْهَداً مَألوفاً، أن يَراهُ النّاسُ جالِساً على أبوابِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ في القَرِّ أوِ البَردِ، واضِعاً رداءَهُ تَحتَهُ، فيما الرّيحُ تَرْشُقُ ثوبَهُ بالتُّرابِ، لِيَسْتَمِعَ وَيُدَوِّنَ!

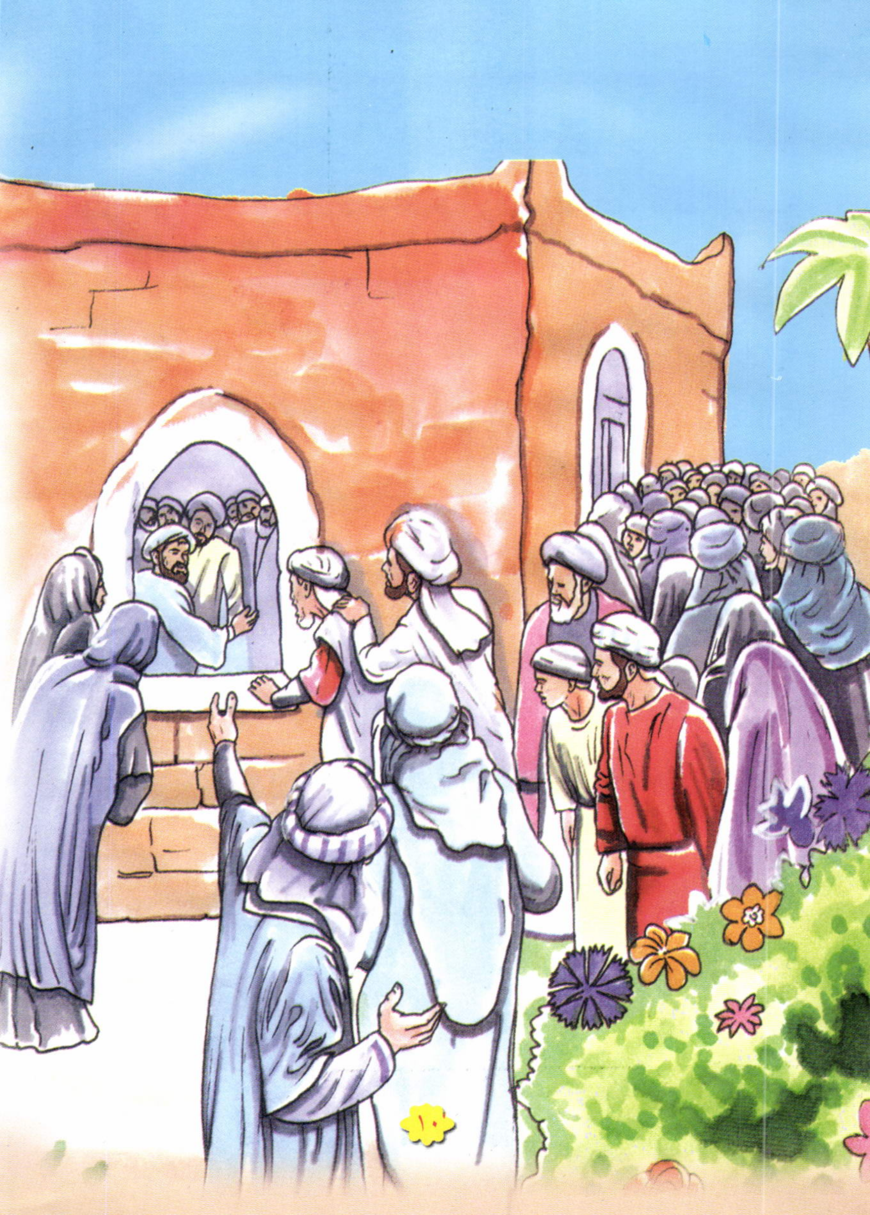
وَلَطالَما كانَ يَسمَعُ من أولئِكَ النّاسِ مَنْ يَقولُ لَهُ:" يا بنَ عمِّ رسولِ اللّهِ! ما جاءَ بِكَ؟ هلاّ أرسَلْتَ إليَّ فآتيكَ؟". لِما كانَ لَهُ مِن احتِرامٍ وَهَيبَةٍ في نُفوسِ النّاسِ.

فكانَ يقولُ:" لا، أنا أحقُّ أن آتيكَ!". ثُمَّ يسألُ وَيسألُ حتّى يَبلُغَ ما يُفَتِّشُ عَنهُ من أحاديثَ وَعُلومٍ.

وَقَدْ تَذَكَّرَ فيما هُوَ على هذِهِ الحالِ منَ البَحثِ وَالتَّعَلُّمِ، رَجُلاً منَ الأنصارِ كانَ قَدِ التَقاهُ بَعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، وقالَ لَهُ:" هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أصحابَ رَسولِ اللّهِ ﷺ، فَإنَّهُمُ اليَومَ كثيرٌ".

فقالَ الرَّجُلُ:" واعَجَباً لَكَ! أترى النّاسَ يَفْتَقِرونَ إلَيكَ؟".

بِمَعنى أنَّ المُعَلِّمينَ كُثُر.



ذلكَ الرَّجُلُ رأى ابنَ عبّاسٍ بَعدَ سِنينَ طويلَةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعَ النّاسُ حَولَهُ يَسألونَهُ، فقالَ:" هذا الفتى كانَ أعقلَ منّي!".

نَعَمْ، لَقَدْ كانَ النّاسُ يَجْتَمِعونَ حَولَ بَيتِهِ لِحاجَتِهِم إلى العِلمِ، حتّى تَضيقَ بِهِمُ الطَّريقُ مَهما وَسِعَتْ.فَيَقومُ وَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَأمُرُ بِأنْ يُدْخَلوا إلى دارِهِ جماعَةً تِلوَ جَماعَةٍ. وَذلكَ بِحَسَبِ نَوعِ العِلمِ الّذي يَطلُبونَهُ، إن كانَ في علومِ القُرآنِ الكَريمِ، أو في التّفسيرِ أو في الحلالِ وَالحَرامِ وَالفِقْهِ، أو في الفَرائِضِ أو في اللّغةِ والأدبِ.

كانَ ابنُ عبّاسٍ قادراً على أن يُجيبَ السّائِلينَ في جَميعِ العُلومِ، بَلْ بِما يَزيدُ عَنْ أسئِلَتِهِم.

وَها هُوَ يَروي لِلْمُسلِمينَ من أحاديثِ النَّبيِّ ﷺ ما يُجَنِّبُهُمُ الضَّلالَ من بَعدِهِ، فَلَقدْ كانَ حاضِراً في كثيرٍ منَ المُناسَباتِ، كما أنَّهُ استَقى العِلمَ من مصادِرِهِ في مُناسَباتٍ أُخرى، حتّى اجتَمَعَ رأيُ النّاسِ عامَّةً على أنّهُ مَصدَرُ ثِقَةٍ في كُلِّ ما يَرِدُ على لِسانِهِ.

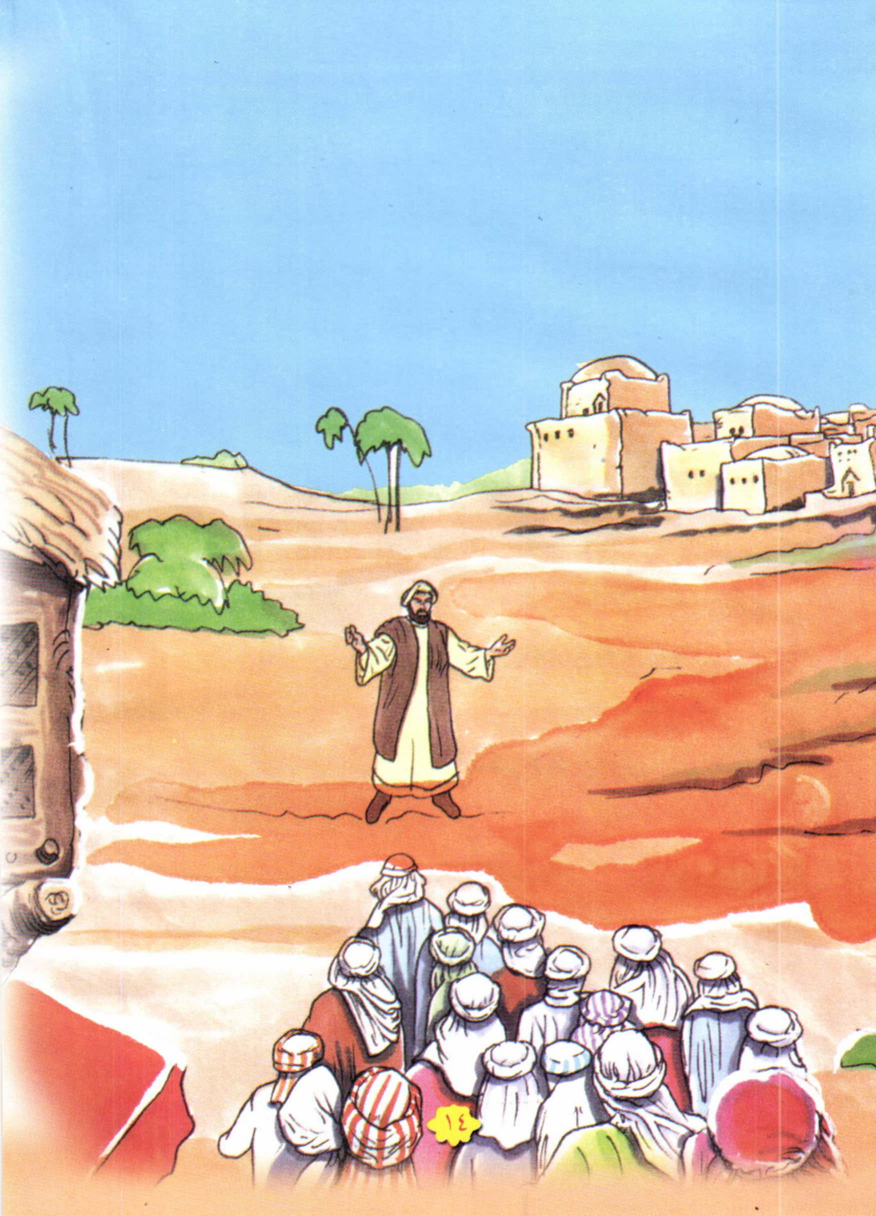


كما لَقَّبوهُ بالحَبرِ، والبَحرِ لِما احتواهُ من عِلم وفيرٍ لَم يَتيَسَّرْ لِسواهُ من البَشَرِ، حاشا المعصومونَ عليهم السلام. وَكانَ الخَليفَةُ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ مِمَّنْ شَهِدوا لَهُ بالثِّقَةِ وَ العِلمِ في مُناسَباتٍ عَديدَةٍ، فقَدِ اعتادَ على أن يَلجَأَ فيما عَصِيَ عَلَيهِ مِنَ المَسائِلِ إلى الإمامِ عليٍّ عليه السلام، أمّا في المَسائِلِ الأسْهَلِ فكانَ يَلجَأُ إلى ابنِ عبّاسٍ، قائِلاً لَهُ: "غُصْ ياغَوّاصُ!".

إذ إنَّهُ كانَ على عِلم بأَنَّ لابنِ عبّاسٍ القُدرَةَ على أن يأتي بالجَوابِ من أعماقٍ نَفسِهِ وَعقلِهِ، بَعدَ أنْ لُقِّبَ بالبَحر.

لَقَدْ حَفِظَ ابنُ عبّاسٍ الكَثيرَ الكَثيرَ من أَقوالِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في حقِّ أهلِ البَيتِ، وفي حقِّ الإمام عليٍّ عليه السلام على وَجهِ الخُصوصِ، وَها هُوَ يَرى النّاسَ بِعَينِهِ بَعدَ وَفاةِ نَبيِّهِم صلى الله عليه وآله وسلم، قَد ضَلّوا وَتاهوا عنِ الصَّوابِ، وَقَبِلوا بِمُبايَعَةِ خَليفَةٍ غَيرِ وَصِيِّ الرَّسولِ الأكرَمِ صلى الله عليه وآله وسلم، فَدَأَبَ على تَذكيرِهِم، يَروي لهُم ماحَدَثَ يَومَ غَديرِ خُمٍّ، وَما وَرَدَ على لِسانِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم،

بَلْ راحَ يُذَكِّرُهُم بِأَوَّلِ المُبايِعينَ للإمامِ عليه السلام، وَهُما أبو بَكرٍ وَعُمَرُ، اللّذانِ قالا لِعَليٍّ عليه السلام أمامَ الجُموعِ المُحتَشِدَةِ: "بَخٍ بَخٍ لَكَ يابنَ أبي طالبٍ! فَقَدْ أصبَحْتَ مَولانا وَمَولى المُؤْمِنينَ!".



ذلكَ اليَــومَ، وَرَدَتْ رِوايَــةُ أحداثِــهِ عــلى ألسِنَةِ المِئــاتِ مِنَ الصَّحابَةِ و الرُّواةِ و الشُّعراءِ، وَلكِنْ، للأسَفِ الشَّديدِ، لَــم يَعمَــلِ المُسْلِمونَ بِوَصِيَّةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتناسوا كُلَّ ماجاءَ فيها بَعــدَ مُــرورِ شَهرينِ عَلَيها،بَعدَ أَنْ أَسْلَمَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم روحَهُ الشَّريفَةَ إلى بارِئِهــا!

إنَّ ابنَ عبّاسٍ يَعلَمُ بِالكَثيرِ مِمّا يَعلَمُهُ النّاسُ وَيَتناسَونَهُ، وَيَعلَــمُ بالكثيرِ مِمّا لايَعلَمونَهُ.

وهُوَ لَم يَبخَلْ عَلَيهِم بِإرشادِهِمْ إلى الحَقيقَةِ، ولكنَّ العِلمَ بالنِّسبَةِ إلى مُعْظَمِهِم شَيءٌ، والعَمَلَ بِهِ شَيءٌ آخَرُ.

وَلأنَّ ابنَ عبّاسٍ يَعلَمُ فَقَد وَجَدَ نَفسَهُ في المكانِ الّذي لا بُدَّ لَــهُ مِن أن يكــونَ فيهِ. إنَّهُ من أَصحــابِ عليٍّ عليه السلام، ولا يُمكِــنُ لَهُ أن يَفصِلَ العِلمَ عنِ العَمَلِ كما فَعَلَ الكَثيرونَ.

لَقَدْ مَرَّتْ أيّــامُ خِلافَةِ أبي بَكــرٍ وَعُمَــرَ، وابنُ عبّاسٍ واقِفٌ إلى جانِبِ عليٍّ عليه السلام في كُلِّ المَواقِفِ، وَأهمُّ هذهِ المَواقِفِ نَشرُ العِلمِ بَينَ النّاسِ.



كَذلكَ في أيّامِ عُثمانَ بنِ عفّانٍ. أمّا حينَ تولّى أميرُ المُؤمِنينَ الإمـامُ عليٌّ بنُ أبي طالبٍ الخِلافَةَ، فَقَدْ أُضيفَتْ إلى دَورِ ابنِ عبّاسٍ أدوارٌ أُخرى.

إنَّ عَودَةَ الحَقِّ إلى أَصحابِهِ أغلى أمنياتِ ابنِ عبّاسٍ، ولكنَّ الحاقِدينَ كُثُرٌ، وَالمَسؤوليّاتِ عظيمَةٌ، والمصاعِبَ الّتي لاحَتْ غُيومُها في الأُفُقِ، تَنتَظِـرُ منهُ موقِفاً حازِماً، لَم يَكُنْ لِيَبْخَـلَ بِهِ عَلى أمَّةِ المُسلِمينَ.

بَدأَتْ تِلكَ المَصـاعِبُ يَـومَ جيَّشَتْ زَوجُ النَّبيِّ ﷺ عائِشَـةُ الجُيوشَ، وانطَلَقَتْ تُطـالِبُ بِدَمِ عُثمـانَ، مُوَجِّهَـةً الاتِّهـامَ إلى أقْرَبِ النّاسِ منَ النَّبيِّ ﷺ، وَأعظَمِهِم موَدَّةً منهُ.

فَلَم يَجِدِ ابنُ عبّاسٍ نَفسَهُ إلاّ مُجَرِّدا سَيفَهُ، في مُقَدِّمَـةِ جَيشِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام في مَعرَكَةِ الجَمَلِ، بَعدَ أن رَفَضَتْ أُمُّ المُؤمِنينَ كُلَّ النَّصائِحِ الدّاعِيَةِ إلى أن تَلتَزِمَ بِأَمرِ زَوجِها النَّبيِّ ﷺ، وَتَقِرَّ في بَيتِها، وَتَشْهَدَ بالحَقِّ.



وكانَ ابنُ عبّاسٍ من بينِ مَنْ أَرسَلَهُمُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام إلى عائِشَةَ كَيْ يَحقِنوا دَمَ المُسلِمينَ، فَذَهَبَ إلَيها، وَخَوَّفَها من مُخالَفَةِ أَمرِ اللّهِ عزَّ وَجلَّ، وَالخُروجِ على وَصِيَّةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما شَرَحَ لَها ما يُمكِنُ أن يَنجُمَ عن حَربِها تِلكَ من إراقَةِ دِماءِ المُسلِمينَ.

إلاّ أنَّ جَوابَ عائِشَةَ كانَ حازِماً،وَهُوَ الحَربُ.

ودارَتِ الحَربُ الّتي سَقَطَ ضَحِيَّتَها عَدَدٌ كبيرٌ منَ النّاسِ، وانتَصَرَ جَيشُ الإمامِ عليٍّ عليه السلام الّذي كانَ ابنُ عبّاسٍ في مُقَدِّمَتِهِ. أمّا عائِشَةُ فَقَدْ أَمَرَ أميرُ المُؤمِنينَ عليٌّ عليه السلام أخاها مُحَمَّداً بنَ أبي بَكْرٍ بأنْ يَطْمَئِنَّ عَلَيها، فَوَجَدَها سالِمَةً إلاّ من سَهمٍ خَدَشَ ثَوْبَها خَدْشاً صَغيراً.

ثُمَّ أَمَرَهُ الإمامُ عليه السلام بأن يَحمِلَها إلى إحدى دورِ المُسلِمينَ كَي تَستَعِدَّ لِلعَودَةِ إلى دارِها في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ، وَإلى هُناكَ أَرسَلَ إلَيها الإمامُ عليٌّ عليه السلام ابنَ عبّاسٍ كَيْ يَحُثَّها على العَودَةِ إلى المدينَةِ دونَما إبطاءٍ، ففَعَلَ، وَهُناكَ دارَ بَينَهُ وَبَينَ عائِشَةَ حِوارٌ، بيَّنَ لَها فيهِ خَطَأَها في الخُروجِ على تعاليمِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ عادَ إلى الإمامِ عليه السلام وَأَخبَرَهُ بِهِ، فَقالَ عليه السلام:" أنا كُنتُ أَعْلَمُ بِكَ حَيثُ بَعَثْتُكَ.".



لَم تَكُنْ حَربُ الجَمَلِ هِيَ الفِتْنَةَ الأخيرَةَ في حَياةِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام، إذ مالَبثَ مُعاوِيَةُ أن رَفضَ مُبايَعَةَ الإمام عليه السلام، وَأصَرَّ على أن يَتأمَّرَ على النّاسِ بالفُسقِ وَالفُجورِ.

هذا هُوَ مُعاوِيَةُ إذاً يَستَعِدُّ لِحَربِ صِفّينَ، فيما عَبدُ اللّهِ بنُ عبّاسٍ والياً على البَصْرَةِ، فَسارَعَ إلى استِخلافِ أبي الأسْوَدِ الدُّؤَليِّ مكانَهُ.

وَيَقِفُ ابنُ عبّاسٍ من جَديدٍ بَينَ يَديِّ أميرِ المُؤمِنينَ عليٍّ عليه السلام، لِيَقولَ فيهِ مُعاوِيَةُ:" إنَّ قَلبَ ابنِ عبّاسٍ وَقَلبَ عليٍّ قَلبٌ واحِدٌ، كِلاهُما وُلْدُ عَبدِ المُطَّلِب.. ".

وَتَدورُ رحى الحَربِ، وَكانَ أعظَمُها لَيلَةَ الهَرير. في تِلكَ المَعرَكَةِ، تولّى قِيادةَ مَيمَنَةِ جَيشِ أميرِ المُؤمِنينَ عليه السلام مالِكٌ الأشْتَرُ، وَتولّى مَيسَرَتَهُ عَبدُ اللّهِ بنُ عبّاسٍ، فيما كانَ الإمام عليٌّ عليه السلام في قَلبِ الجَيشِ.

تِلكَ اللّيلَةَ كادَتْ أن تَنتَهيَ بانتِصارِ جَيشِ أميرِ المُؤمِنينَ عليه السلام لَولا حيلَةُ رَفعَ المصاحِفِ الّتي انتَهَتْ بِتَخاذُلِ قِسمٍ كبيرٍ من جَيشِ الإمامِ عليه السلام.



وَوَجَدَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام نفسَهُ في مُواجَهَةِ خِدعَةِ التَّحكيم أيضاً، وَقَدْ أبى النّاسُ أنْ يكونَ مُرَشَّحُهُ إلى التّحكيم سِوى أبي موسى الأشْعَريِّ، ذاكَ الرَّجُلُ الّذي لَم يَكُنْ أميناً على الإمام عليه السلام، ولا مُخْلِصاً إلَيهِ.

وكانَ الإمامُ عليه السلام قَدِ اختارَ ابنَ عبّاسٍ لِذلكَ المَوقِفِ، فَأبى قائِدُ جَيشِ مُعاوِيَةَ، وكذلكَ الخوارِجُ بِحُجَّةِ أنْ لا فَرقَ بَينَهُ وَبَينَ الإمام عليٍّ عليه السلام.

رغمَ اختِيارِ القَومِ أبي موسى الأشْعَريِّ، فَقَدْ أرسَلَ الإمامُ عليه السلام عَبدَ اللّهِ بنَ عبّاسٍ وشَريحاً بنَ هانِئٍ الهَمَدانيَّ وأربعمائَةِ رَجُلٍ، أمّا مُعاوِيَةُ فَقَدْ أرسَلَ عَمرو بنَ العاصِ، وَشَرْحَبيل بنَ السَّمطِ وأربعمائَةِ رَجُلٍ.

وكانَ ابنُ عبّاسٍ لايَفتأُ خِلالَ المَسيرِ يُحذِّرُ الأشْعَريَّ منَ المكائِدِ الّتي اشْتُهِرَ بها مُعاوِيَةُ، قائِلاً لَهُ: ". . إن نَسيتَ فلا تَنسَ أنَّ عَلِيّاً بايَعَهُ الّذينَ بايَعوا أبا بَكرٍ وَعُمَرَ وعُثمانَ، وَليسَ فيهِ خُصلَةٌ تُباعِدُهُ منَ الخِلافَةِ، وَلَيسَ في مُعاوِيَةَ خُصلَةٌ تُقَرِّبُهُ منَ الخِلافَةِ".



ورغمَ تَحذيرِ ابنِ عبّاس، فَقَدْ وَقَعَ الأشْعَريُّ في فَخِّ مُعـاويَةَ، فَكانَ ابنُ عبّاسٍ بَعدَ ذلكَ يقولُ: " قَبَّحَ اللّهُ أبا موسى، حذَّرتُهُ وَأَمَرْتُهُ بالرَّأي فَما عَقِلَ."

وَعادَ القَومُ إلى الإمامِ عليٍّ عليه السلام يروونَ لَهُ ماحَدَثَ، فَلَم تَنتَـهِ الأمورُ عِندَ هذا الحَدِّ.

إنَّ مُعاويَـةَ مُتَعَطِّشٌ إلى السُّلطَـةِ والخِلافَـةِ عَطَشاً لا مَثيلَ لَهُ، وهُوَ على استِعدادٍ لإفناءِ البَشَرِ عن آخِرهم لَو لَمْ يُبايِعْهُ أحَدٌ.

أمّا الخَوارِجُ، فلأولئِكَ شَأنٌ آخَرُ في الضَّلالِ والانحِرافِ.

وَها هُوَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام يَقِفُ في وَسَطِ الأهوالِ تِلكَ كُلِّها فلا يَجِدُ أقدَرَ منِ ابنِ عبّاسٍ على مُشارَكَتِهِ في مُواجَهَتِها.

إنَّهُ يَدعوهُ، وَيُرسِلُهُ إلَيهِم في واحِدَةٍ من أصْعَبِ المَهَمّاتِ وأدقِّها!

إنَّهُمُ الخَوارِجُ الّذينَ زَلَّتْ بِهِمُ القَدَمُ، فَشَرَّعوا لأنفُسِهِم إسلاماً خاصّاً بِهِم. هؤلاءِ الّذينَ أنَّبوا أحَدَ أتباعِهِم على قَتلِهِ خِنزيراً، فيما سَوَّلَتْ لَهُم أنْفُسُهُمْ أن يَقتُلوا عَبدَ اللّهِ بنَ خُبابٍ، وَيَبقَروا بَطنَ امرَأتِهِ الحامِلِ! فَكَيفَ يُمكِنُ لِهؤلاءِ القَومِ أن يَفقَهوا بَعدَ أن استَشْرَتِ البَلادَةُ والحماقَةُ بِعُقولِهِم؟



لَم يَتأَخَّرِ ابنُ عبّاسٍ عنِ القِيامِ بالمَهَمَّةِ الّتي أرسَلَهُ الإمـامُ عليه السلام إلَيها. وَوقَفَ في مُواجَهَةِ الخَوارِجِ، فَلَم يَزَلْ يُحاوِرُهُم وَيَحتَجُّ عَلَيهِم، حتّى عادَ قِسْمٌ كَبيرٌ منهُم إلى صُفوفِ الإمامِ عليه السلام. أمّـا الباقونَ، فَلَم يَهتَدوا، وَفَضَّلوا الحَربَ.

وَتَمُرُّ الأيّامُ، وَيَفـوزُ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام بالشّهـادَةِ، وَابنُ عبّـاسٍ والِياً على البَصْرَةِ، فَيُبايِعُ ابنُ عَبّاسٍ الإمامَ الحَسَنَ عليه السلام، وَيَلتَقي بِهِ المُسلِمونَ فَيَرونَ أسفَلَ عَيْنَيْهِ مِثلَ الشِّراكِ البالي من كَثـرَةِ البُكاءِ، وَهُم يَعلَمونَ أنَّ أكثَرَ ما أبكى ابنَ عبّاسٍ في حَياتِهِ هُوَ حُزنُهُ على أميرِ المُؤمِنينَ عليه السلام، وعلى وَلَدَيهِ الشَّهيدَينِ الإمامَينِ الحَسَنِ والحُسينِ عليهما السلام.

ثُمَّ تَمضي السّنونَ، وَيَنطَفِئُ نورُ عَينَيِّ ابنَ عبّـاسٍ،فَنَعـودُ إلَيهِ لِنَجِدَهُ شَيخاً جليلاً أعمىً قد جاوزَتْ سُنونُهُ السَّبعونَ.



إنَّها مدينة الطّائِفِ في الحجازِ، ونحنُ الآنَ في السَّنَةِ الثّامِنَةِ بَعدَ السِّتّينَ من الهِجرَةِ الشَّريفَةِ.

كانَ ابنُ عَبّاسٍ على فِراشِ المَرَضِ والنّاسُ يتوافَدونَ لِعِيادَتِهِ لِما لَهُ من مكانَةٍ مَهيبَةٍ بينَهُم.

وَهاهُم ثلاثونَ رجُلاً يَقدُمونَ عَلَيهِ. إنَّهُم من شيوخِ الطّائفِ، وعلى رأسِهِم رَجُلٌ مُؤمِنٌ يُدعى عَطاء.

سَلَّمَ الجَميعُ على الشَّيخ وَقَعَدوا، فَلَم يَعرِفْ منهُم سِوى عطاءً، فقالَ لَهُ:" يا عَطاءُ! مَنِ القَومُ؟ ".

فقالَ لَهُ عطاءٌ:" ياسَيِّدي هُم شُيوخُ هذا البَلَدِ! ". ثُمَّ ذَكَرَهُم لَهُ واحِداً واحِداً.

فَتَقَدَّمَ إليهِ القَومُ يَسألونَهُ:" يا ابنَ عمِّ رَسولِ اللّهِ! إنَّكَ رَأَيتَ رَسولَ اللّهِ، وَسَمِعْتَ منهُ ما سَمِعْتَ، فَأَخْبِرْنا عنِ اختِلافِ هذِهِ الأمَّةِ، فَقَومٌ قَدَّموا عَلِيّاً على غَيرِهِ، وَقَومٌ جَعَلوهُ بَعدَ الثَّلاثَةِ".

فَتَنَهَّدَ ابنُ عَبّاسٍ، وَقَدْ عادَ بِذاكِرَتِهِ إلى سنينَ طويلَةٍ. وَراحَ يَجمَعُ منها أهَمَّ ما حَفَرَتْهُ الأيّامُ من حقائِقَ.



ثُمَّ قالَ: " سَمِعتُ رَسولَ اللّهِ ﷺ يقـولُ: "عليٌّ مَعَ الحَقِّ، والحـقُّ مَعَهُ، وَهُوَ الإمامُ وَالخَليفَةُ من بَعدي، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ فازَ وَنَجـا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عنهُ ضلَّ وَغوى.".

ثُمَّ غَلَبَ البُكاءُ عَلَيهِ، فبكى بُكاءً أشجى قُلوبَ الرِّجالِ. فقالَ لَـهُ أَحَدُهُم: " أَتبكي وَمكانَكَ من رَسولِ اللّهِ مكانَكَ؟".

فقالَ لِعطاءٍ: " ياعطاءُ! إنّما أبكي لِخَصلَتَينِ: هولِ المَطلَعِ، وفُراقِ الأَحِبَّةِ. ".

بَعدَ قَليلٍ رَحَلَ الرِّجالُ وَبَقِيَ عطاءٌ، فقالَ ابنُ عبّاسٍ لَهُ: " ياعَطاءُ، خُذْ بِيَدي، واحمِلْني إلى صَحنِ الدّارِ. ".

فَحَمَلَهُ عَطاءُ وَمَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ إلى حَيثُ أَرادَ، وَما إنِ استَقَرَّ في ضَجْعَتِهِ حتّى رَفَعَ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ وَقالَ: " اللّهُمَّ إنّي أَتَقَرَّبُ إلَيكَ بِوِلايَةِ الشَّيخ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ؑ! ".

وَمازالَ يُكَرِّرُ دُعاءَهُ ذاكَ حتّى هوى على الأرضِ وَقَدْ فاضَتْ روحُهُ الطّاهِرَةُ.

كانَ ذلكَ الرَّجُلُ: عَبدَ اللّهِ بنَ العَبّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ. ابنِ عمِّ رسولِ اللّهِ ﷺ، والإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ؑ .رَضِيَ اللّهُ عَنهُ.

